الاسلام تجاه تحديات العصر

للدكتور حسن صعب

منشورات دار الاداب ـ بيروت

***

« الاسلام تجاه تحديات الحياة العصرية » . تحد واغراء وذهول على صعيد ابداعي يلتقي فيه الخالق والمخلوق .

لماذا يتحدى وقتك هذا الكتاب ؟ لماذا ينتزعك ، باغراء لا دافع له، من دوامة انهماكك ؟ لماذا يذهلك عن كل شيء لشدة ما يركز لك في كل شيء ؟ ...

لعل ذلك يرجع الى ما اودعه مؤلفه من اسئلة واجوبة ، اسئلة انسانية ، سألها الانسان الغابر ، ويسألها الانسان الحاضر ، وسيسألها انسان المستقبل . واجوبة انسانية تتفاوت في قدرتها على الاقناع .

الكتاب حوار ممتع بين امس الانسان ويومه ، بين وجوده وغيبه. احياء للرضى المستلهم الباني ، وتجسيد للرفض المتجاوز الهادم . انه رحلة فكرية تطل بالعقل على افاق الاين والمتى . فكأن مؤلفه « رائد فضائي » ، يرتفع حتى تتلاشى الحدود المكانية والزمانية ، ويبدو له الانسان انسانا لا غير ، صورة الله ، خليفة الله ، الانسان الاسلام ، انسان الرحمة والمحبة .

قدم المؤلف كتابه في عشرة فصول ومقدمة قال فيها : ان فصول كتابه « فروع متعددة لاصل واحد . وتنبع كلها من معين واحد ، هو معين الايمان بالاسلام ، والاعتقاد بقدرته على ان يواجه تحديات الحياة العصرية بالروح الخلاقة نفسها التي جابه بها تحديات اخرى منذ نشأته حتى اليوم . » (ص ٥) .

« الاسلام نظام ونسق للحياة » . والحياة العصرية تدمر كل ما بناه الماضي ، حتى المعتقدات الفكرية ، حتى الايمان بالله ، لم يعد موضوع بحث في مختبرات الطاقة النووية ، ومصانع الاسلحة الحديثة. الغربي والشرقي التقيا على رفض الماضي ، بكل نظمه .

« قاعدة الاسلام الازلية هي الاعتقاد بوجود الله الذي لا يتغير بتغير الزمان والمكان » . وكل ما حولنا اليوم يتحدى هذه الحقيقة ». حتى الواقع الاسلامي نفسه ، يتحداها ، فللاباء دينهم ، وللابناء دينهم. لكل من الجيلين عالمه . « فايهما عالم الغد » ؟؟ ..

يجمل المؤلف رأيه بالمعالمين ، ليخلص الى الجواب المنقذ « فعالم الاباء عالم فضائل ورذائل قديمة . وعالم الابناء عالم فضائل ورذائل جديدة » . اما الجواب فكامن في «معنى الاسلام السرمدي لانه عالم حقائق وفضائل لا يتغير جوهرها وان تغيرت صورها » .

من هذا العالم ، عالم الاسلام ، عالم الحقائق والفضائل ، ينطلق في فصول كتابه ، بمنهجية مؤلة عالمة ، فيدعو باخلاص وصدق « لتفهم معنى الاسلام السرمدي » الذي لا يتغير خلال تغيرات الحياة التي لا تنتهي » . « يدعو لاحلال العقل والاقناع المحل الذي اراده الله في فكر الانسان وسلوكه » ، راجيا استئناف الحوار بين الله والانسان ، وبين الانسان واخيه ، وبين طلاب الحقيقة اينما كانوا في اي زمان ومكان . » .

***

في الفصول الثلاثة الاولى من الكتاب : « الاسلام تجاه تحديات الحياة العصرية » و « الاسلام ثورة اجتهادية دائمة » و « الفارابي او ثورة العقل الاسلامي في سبيل السعادة » يعرض لجوهر الاسلام ، وجوهر الحياة العصرية ، والتحدي الاكبر الذي تواجه به الحياةالعصرية الاسلام . فروح الاسلام الهية ، وطابع حضارته دينية . وروح الحضارة الحديثة عقلاني ، وطابعها علمي . والخطورة في كون الحضارة الحديثة كونية ، فهي حضارة كل انسان شاء ام ابى ، خطر الذرة يهدد الجميع، وفائدة الكهرباء والمذياع تعم الجميع .

لذلك يرجع الى القرآن الكريم ، ويستجلي صورة الانسان فيه فهو خليفة الله على الارض . وبالتالي على الانسان المسلم ان يدرك حقيقة اسلامه بعمق لينطلق منها . فالاسلام ثورة اجتهادية دائمة تستنير بالعقل الذي يهدي ، فيرفع الانسان الخليفة لسوية المهمة . وبذلك يزول التحدي بين الاسلام والحضارة الحديثة . لان معطياتها من صنع الانسان . « والانسان الموحد المسلم خالق ، لانه الانسان المتخلقباخلاق الله . ولكنه انسان خالق بحرية ومحبة ، وعدل ورحمة . » (ص٤١).

وفي الفصول الاربعة التالية : « من الثورية السياسية الى الثورية الروحية » و « الثورية غائية نظامية » و « من الثورية العنفية الى التناوبية النظامية في الحكم » و « الديمقراطية الحقيقية تجسيم لقيم الاسلام الروحية والخلقية » ينطلق المؤلف من فكرة الثورية ، ويتوقف مع ثورية القرن العشرين ، هذه الثورية الكونية التي تتناول جميعوجوه حياة الانسان بما قدمته من مواصلات وطاقة نووية ومخترعات اخرى ، ويرى انها لا تزال ناقصة ، وينبغي لكمالها ان تمتد الى نفس الانسان وحيانه . لان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم . وان الثورية النفسية التي توصل الانسان لادراك قيمته كانسان مستخلف فيالارض، تجعله يرعوي عن غيه ، ويثوب لرشده ، ويوجه عقله في سبيل صالحه لا في سبيل تدمير نفسه ووجوده ، وكأنه يتساءل مع المتنبي :

وكأنا لم يرض فينا بريب الدهر حتى اعانه من اعانا ؟ ..

ويبرهن ان الثورة ليست الحادا ، فالاسلام ثورة في حينه وفي كل حين . والاسلام ايمان بالله وانطلاق عملي نحو الكمال الانساني . « وما دام الانسان ، كذات حرة وخلاقة ، هو قاعدة الثورية وغايتها ، فان الاعتبار الانساني يجب ان يظل مرجحا فيها على اي اعتبار اخر . هذا هو منطلق الثورية الاصلية وهذا هو جوها الحديث . » وهو جو قوامه الانسانية والعقلانية والعلمية . وهو الجو الذي يحمل على الاعتقاد بان نظاما افضل يمكن ان ينبثق من الثورة المتفجرة.»(ص١٠١).

وهو يخالف المفاهيم المختلفة للانسان ، التي تجعله بهيمة كالانعام، او عبدا للغريزة الجنسية كما يرى فرويد ، وبالتالي تفقد الانسان خصائصه الجوهرية التي تجعله جديرا بالثورة من اجله. ويهيب بالانسان ان ينطلق من مفهوم حقيقي لنفسه ، وللتغير ، وللنظام ، لانها المنطلقات الفكرية الرئيسية للثورية الاصيلة ، و « هي التي تميزها من العنفية الاضطرابية الدائرية » . (ص ١٠٤) .

واي مفهوم اروع واجمل من مفهوم الدين للانسان، فهو في التوراة صورة الله ، وهو في القرآن خليفة الله على الارض . وحري بمثل هذا الانسان ان يدع الثورية العنفية الى التناوبية النظامية في الحكم. لان ذلك وحده عنوان انتصار العقل .

والعقل يمنح الانسان تقييما روحيا تتجلى به الديمقراطية الحقة. « والديمقراطية بقدر ما تعني الحرية هي هذه الفرصة الوحدوية للتحقق الذاتي الفردي من خلال التحقق العام » (ص ١٢٥) . وهي في نظر المفكرين المثاليين والماديين تجسيم للحرية والعدالة والاخوة والمساواة». (ص ١٢٨) . وهدف المسيحية والاسلام احداث التغيير النفسي والسلوكي والحياتي في شخصية الانسان ، الذي لا يكتمل بدونه سلوكه الديمقراطي . و « هذا لقاء اساسي بين الدين كما نعتقده والديمقراطية كما نريدها » . (ص ١٤١) .

ويتفاءل ، على الرغم من البعد الشاسع بين هذه القيم الروحية وبين الواقع السياسي ، لانه يرى في التوتر الروحي الناشيء عن وعي الانسان للهوة بين مثله الاعلى وواقعه ، يرى في ذلك حافزا قويا للاقتراب من المثل الاعلى .. ولا ضير من واقعنا ، « فالحياة هي الجهد الخلاق المتواصل في سبيل الاقتراب من هذا المثل الاعلى ، اي من الله والحقيقة والمحبة والحرية والعدالة والمساواة » . (ص ١٤٢) .

واما في الفصول الثلاثة الاخيرة : « الثورة المنشودة في العلاقات المسيحية والاسلامية » و « ذكرى بدر : قيادة وتنظيم » و « ذكرى عاشوراء : استشهاد وخلق » فتتجلى البداية والغاية . التاريخ شيء مقيد محدود بوقائعه ، والروح تسمو على الحدود والقيود . وبما ان الدين بمختلف رسالاته وخصوصا المسيحية والاسلام ، شرع الله الذي يدعو للايمان به . والايمان بالله يدعو للايمان بكتبه المنزلة . والتوراة والقرآن تصوران الانسان صورة الله وخليفة له . وانطلاقا من ذلك ينبغي لكل تقي يؤمن بالله ان يواجه التحديات العصرية الملحة ، بالتآزر مع اخيه المؤمن ، اسيحيا كان ام مسلما . على المسيحيين والمسلمين ان يكونوا بمستوى هذا المقام الروحي السامي . لان امواج الالحاد ممتدة على شواطىء الوجود ، وما لم يفهم المؤمنون حقيقة ايمانهم وينطلقوا من روحانيتها ، فقد يجرفهم المد الالحادي الطاغي . ومن اجدر من المسيحية والاسلام ، ويمثل معتنقوهما نصف العالم ، بتفهم هذا التحدي .. والرد عليه بتطبيق الغايات التي من اجلها انبثقت الديانات ؟ ..

الانسان الصافي : دعوة والهام

هذا استعراض سريع لمعطيات الكتاب ، لا يغني القارىء في كثير عن قراءته . لان اروع ما به اسلوبه الخطابي المتحرك ، كانه امواج متدافعة تسلمك الموجة لاختها ، فلا تملك نفسك من الروعة والاندهاش، وربما الانخطاف لعوالم ينقلك اليها تأثيرا وايحاء .

فعندي ان الكتاب بما يثه في الروح الانسانية من نجاوى روحية هامسة تكرم الروح وتحلق بها في الاجواء اللامتناهية ، اكثر من ان يلخص ويحصى ما به من اراء وخواطر .

يشعر القارىء انه مع رائد فضاء فكري ، يطوف به في الافاق وفي نفسه ، فيدع نفسه حرا في الاجواء التي يحبها له المؤلف .

والمؤلف في اجوائه العقلانية ، يثير كثيرا من الملاحظات ، نسوق بعضا منها على سبيل المثال :

١ ــ الملاحظة الاولى :

يدعو المؤلف لحضارة انسانية واعية ، تستوعب مدلول الاسلام الجوهري ، ذلك المدلول المؤكد تصديق معطيات الحضارة الحديثة ، لما وعد به الاسلام منذ اربعة عشر قرنا . ولعل الوقوف قليلا ، مع قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم » . يوضح مذهبنا في فهم الاسلام ، ويركز اشعة الكتاب في محرقها .

ففي مختلف اتجاهات العلم الحديث ، آيات بينات لعظمة المهندس الاكبر .. فمن اكتشاف اسرار الارض وما تتألف منه من ذرات . الى ارتياد اجواء الفضاء وما يسبح به من اجرام ربما كبر اصغرها ارضنا عشرات المرات .. الى الافاق الجديدة التي اكتشفها العلم بجسم الانسان ونفسه فضلا عن مكتشفاته بجسم الارض وجسم الفضاء .

ويشهد التخصص المتناهي ، هذه الايام ، بالدقة العجيبة التي تنظم دقات القلب . وتترجم الاحساس والادراك . كل المعطيات الحديثة، حتى ابعدها ايغالا في المادية ، ليس الا براهين قاطعة على صدق الرؤى القرآنية . وما سيجيء بعد ذلك من عجائب الكشوف سيكون اكثر تعميقا لايمان المسلم الانسان الذي ادرك انه خليفة الله على الارض ، يسعى لمثاله بحركية متواصلة ليبلغ الغاية ، ليكون لائقا بما رشح له . كما يبرهن للمحتجين الحقيقة .

والكتاب دعوة لتفهم الاسلام بحقيقته ليكون رائد الحضارة الحديثة وملهمها لا عدوها .. لتكون الحضارة الحديثة ، بنت العقل ، من ثماره. لانه المحرض الملح لاولي الالباب منذ مئات السنين ليكونوا انفسهم ، لينتهوا بعقولهم ، ليدركوا رسالتهم ، ليحققوا آيات ربهم في الافاق وفي انفسهم ، ليفحموا الملحدين الذين احتجوا عندما جاء الاسلام، وما يزال احتجاجهم قائما ... حتى حين ...

٢ ــ الملاحظة الثانية :

المؤلف يلهم الانسان بكتابه . يحركه للتفكير بنفسه . يدفعه للتأمل بعالمه . يضعه امام المسئولية الكبرى ، مسئولية القيام بالواجب . مسؤولية العقل الذي يحل المشاكل . وكيف لا يتحرك الانسان الحديث بعقله وهو ثمرة تفكير خمسة الاف عام ؟؟

انه اقدر من سابقيه على تجاوز القرية والمدينة والامة الى

صدر حديثا :

الحياة الحب

للشاعر ابراهيم محمد نجا

مجموعة من قصائد الغزل الرفيع

منشورات دار الاداب

الانسانية ، الى العالمين . العالمون الذين بعث محمد (ص) رحمة لهم جميعا ، ولم يبعث لبعض منهم دون الاخر .

هذا على الصعيد العام ، واما على الصعيد الديني ، فانه يلهم ايضا ، يوقظ الفكر المؤمن ، مسيحيا كان ام مسلما ، على ما تضطرب به دنياه من صلالات ، وما ترتطم به من متاهات. فالمسيحي مدعو، والمسلم مدعو لانقاذ السفينة ، لاختراع السفينة المنجية . ولا عاصم من امر الواقع المادي الجارح غير العقل .

ويلهم على الصعيد القومي . فالعرب اجدر بأن يتبنوا الحضارة الحديثة . محمد عربي ، وكتابه الذي اعتمد على اياته في فهم الانسان وكونه ، جاء بلسان عربي مبين .

ويلهم على الصعيد المحلي . لبنان جنة هذا العالم الجوال في الافاق القصية ليرجع ابدا اليها . لبنان ، لبنانه ، يحبه فردوسا صغيرا ، لكنه صورة الفردوس الاكبر . «جمهوريته» «مدينته الفاضلة» يتآلف سكانها ، يتحابون ، يقدرون الانسان ، يعيشونه ، يكونون قدوة للعرب وللناس قاطبة ..

ويلهم على الصعيد الفردي . فالطلاب الذين يدرسون في الجامعات الاوروبية والشرقية والعربية مسئولون في رأيه عن مستقبل امتهم وعن مستقبل الانسانية . الطالب في سن الدراسة طيع الخيال واسعه ، طري البال ، يتأثر ، ينفعل ، ينطلق ، تشد به الكلمة الى الله . يبكي ضارعا الى الله ان يمده بالعقل الخارق والقدرة المعجزة ليكون المنقذ.

٣ ـ الملاحظة الثالثة :

عنوان الكتاب « الاسلام تجاه تحديات الحياة العصرية » وما تثيره كلمة التحدي لاول وهلة من ايهام بان الاسلام عدو الحياة العصرية، في حين ان الفحوى تثبت انه المبشر بها ، والحرص لبلوغ ما بلغته وما ستبلغه ...

وبعض التسامح والتبريرات مثل تكلف العذر لمن يجهل ثقافة جاره المسلم اذا كان مسيحيا او العكس ، في حين يعرف ثقافة المسيحي حيث كان .. « بحجة عالمية الدين وعموميته » (ص ١٦٤) ... اليست العمومية شاملة للجار وثقافته ايا كان .. ؟

هذه امور يمكن مناقشتها ... ارجو ان يكون لي وقفة اخرى مع هذا الاثر المثير .

دمشق — اسعد علي

فارس الامل

للشاعر حسن فتح الباب

***

تضم هذه المجموعة ثلاثة واربعين تكوينا شعريا للفنان حسن فتح الباب . والمتأمل في رحلته خلال هذه اللوحات يكاد يشم رائحة ارض النيل الحبيب ، ويرى صورة واضحة المعالم لمصر ، بمكوناتها الاساسية، ويتعرف الى الانسان المصري بملامحه الظاهرية والباطنية ، بفنه الشعبي، وخياله ، واسطورته ، وحكاياه الصغيرة ، من خلال شاعرية رقراقة اصيلة ، ويرى الصورة التشكيلية يوشيها نغم « بوليفوني » (متعدد الاصوات) تمتزج فيها الواقعية والتأثيرية والتجريدية والسيريالية، والفراغات والظلال والاضواء بريشة صناع .

والى جانب هذا كله ، فللشاعر موقف واضح من الحياة ومشاكل الانسان ، فهو فنان ـ ولا شك ـ منتم ، ولكنه انتماء انساني لا مذهبي، فيه وعي ورحابة . فلو ان مادة التكوين الشعري لديه من طمى النيل وانسانه ، الا ان انطلاق حدود الرؤيا الباطنة عنده تهب التكوين في نهاية الامر شمولا .

ان الشاعر يوفق حينما يخرج من التجربة الذاتية ليسقط على التجربة العامة ، وذلك انه يتعمق المعاناة ، ويتمثل التجربة ، ويحسن استخدام الاداة ، ومن ثم يصل الى افصاح كامل من خلال التكوين الشعري .

والسمة الواضحة وضوحا راسخا في كافة التكوينات الشعرية في المجموعة ، هي تمكن الشاعر من اسرار اللغة ، وادراكه لجمالية التركيب وموسيقى الالفاظ الباطنية . ان موقف الشاعر من هذه الجزئية في التكون موقف ملتزم ، لا يتهاون في اختيار لفظ حائر ، شاذ ، او قاصر التعبير ، لا يمزج مركبا لفظيا فيه تأرجح او ابهام ، بل هو واع باداته كل الوعي ، بينه وبين اسرارها مناجاة وهمس ، يتناولها بتقدير وحب ، فتبذل له مكنونها ، وتخلع على لوحاته بهاء وصفاء وعلى بنائه تماسكا وشموخا ، وهذه ميزة لا نجدها الا في قلة نادرة من شعراء العربية المحدثين .

ان الشاعر في لوحاته الوطنية مثل فارس الامل ، واغنية السد العالي ، وراعيان من حلب ، وشهيد من الجزائر ، وفي لوحاته الملحمية كضابط في القرية ، ومجموعة لوحات الصيادين ، او في لوحاته التي تمثل طابع القصة المصرية القصيرة مثل المقرىء الصغير وشوارع المدينة، وفي لوحاته الذاتية مثل قطرة حب وغيمة الخريف وفي ليلة عيد الميلاد وغيمة الربيع ، وفي لوحاته التي تمثل موقفا من الحياة مثل اغنية ريفية واغنية الى رائد الفضاء .. ان الشاعر في جميع لوحاته تقريبا لا يشغله المضمون عن التشكيل ، او تشغله الاداة عن براعة التعبير ، او تطغى الذهنية او التقريرية على توافق الخطوط والالوان ، ولا يشغله النغم بذاته عن تناسق الابعاد ، بل نحسه رنينا هامسا يتآلق مع تآلق بقع اللون ، ويندمج مع انسياب البؤرة اذ تتماوج داخل اللوحة في تزاوج جميل .

ولنستمع معا الى الشاعر في نماذج قليلة من شعره على سبيل المثال ، حين يطلق قوسه على وتر قيثاره . ففي لوحة « فارس الامل » المهداة الى البطل جمال عبد الناصر وهي من الشعر الوطني يقول :

انفاسهم مشبوبة الحنين ساعة السحر
والشمس تغمر العيون والشجر
وتنضح الجباه بالعرق
لا يعرفون زينة المدن
وينشقون طيب العبير من ندى الحقول
وفي المساء حين يرجعون
يكاد خطوهم يذوب من حنين
لضمة البنات والبنين
وينشد الارغول ...

وفي لوحة « دم على البحيرة » وهي من الشعر الملحمي يقول :

لا تهبط ادنى الجسر
لا تهبط
ما اشقى صيادا القى شبكه
في بركة دم
وتولى والصيد وفير
لكن الشبكة تنزف دم ...

وفي لوحة « الشيخ والقيثار » وهي من شعر القصة المصرية القصيرة يقول :

الارض لم تزل بهم تدور
اشربة ، موائد ، عطور
وخطوة الساقي الصغير لا تمل لا تثور
سيدتي ، ما شئت في يديك
المجد للجمال ، للربيع ، لك ...

وفي قصيدة « مدينتي اعياد حب » وهي من شعر المواقف يقول :

لا موت بعد اليوم
لا نار لا غبار لا دمار

لتنطلق مواكب العمال في شواطىء البحار
لتتحد منابع الانهار
ويولد ابن الارض من جديد ...

***

هذه التراكيب اللفظية المتماسكة ، التي تحس فيها ان اللفظ يرد الى وعي الشاعر في يسر ، انما تنم عن ادراك تلقائي بجمال الكلمة او قوتها او نغمها بحيث تنسل الى خياله فتقع موقعا توافقيا معنى وجرسا . ولا يستطيع المتلقي هنا ان يفصل بين الوعي والتلوين والتنغيم داخل التكوين الشعري . ان المزج التشكيلي في المقطوعة الاخيرة مثلا، بين النار والغبار والدمار والعمال على شواطىء البحار واتحاد منابع الانهار وميلاد ابن الارض من جديد ، فضلا عن انه مزج لهذه الكتل من الطبيعة الحية المتحركة وقد امتزجت في تنفيذه الاساليب الواقعية والتأثيرية والسيريالية ، الا ان النغم النابع من استخدام الاداة في انتقاء واع وانسياب تلقائي قد اكمل الالوان الصارخة والخطوط القوية المنطلقة ، فتوحد بذلك النسيج واتضح جليا لعين المتلقي واستراح سمعه الى موسيقاه المنسابة المركبة .

وفوق ذلك فان هذا التكوين كله قد ضمه اطار متصور من الوعي يطوق المادة ولا يحد الخيال .

ومن السمات العامة ايضا في هذه المجموعة سمة المزج الانتقالي الجمالي ، وهي ايضا من السمات التي يكاد ينفرد بها شعر حسن فتح الباب ، وبها يمزج لوحة تشكيلية باخرى من طريق عنصر مشترك فيهما مع الانتقال من حالة وجدانية الى اخرى ومن موقف الى اخر باسلوب بارع . ومن ذلك على سبيل المثال لوحة « في ليلة عيد الميلاد » حيث يقول :

واجتاحتهم ذكرى الاحزان
اعصارا يقتلع القلب
وجدا اسرج كل دموع الويل
اطفأ كل شموع الليل
اطفأها لم يبق سوى شمعه
بين حنايا الصدر
قالوا من يحملها ، يشعلها
في اعلى اسوار القلعه
لتضيء لاقدام الفجر
ولتصهر صدأ الاصفاد
في ليلة عيد الميلاد ...

فهنا استخدم الشاعر « الشمعة » كأساس لهذا المزج الانتقالي في ابداع شعري مرهف .

***

ننتقل بعد ذلك من هذا التعميم الى التخصيص حسب مضمون كل مجموعة من اللوحات ، فنضرب المثال بواحدة من كل باقة لنرى ما فعل الشاعر . فمن قصائده الوطنية نلقي نظرة سريعة على قصيدة « فارس الامل » حيث يقول الشاعر قرب ختام اللوحة :

وغرد الموال فوق موجة القلوب
يا ناصر العناه
يا قاهر الطغاة بالسواعد الشداد
تفجرت من شعبك المجيد
يا حلم الاجداد من قدم
يا واهب الحياة للقناه

ثم يقول :

يا ثائرا من هوة الضياع للعرب
يرود قمة الصراع للحياه
يا مشعل النضال للابطال
يا فارس الامل

هنا مزج الشاعر بين البطل وشعبه اذ هو يقهر الطغاة بسواعدهم الشديدة ، ومن وجدانهم الصافي ومن خلال الموالي ، يتغنون به في فنونهم الشعبية بوصفه بطلا اسطوريا كان يراود احلامهم ، فهوفارس الامل .

فبالحب يتكلم الشاعر وليس بالمدح ، ان عبد الناصر في رأيه ملتقى لاحلام الابناء والاجداد ، وهم يحبونه لاسباب مقنعة ، فهو الذي رد الحياة الى القناة ، فاعادها شريانا نابضا الى كيان الوطن ، وهو الذي حارب بسواعدهم القوية وهو الذي ثار فاقال العرب من هوتهم.

وعلى الارغول ينشد الشاعر حبه فيقول :

وينشد الارغول :

يا ليل طابت سهرة الصحاب
والشمل ضم الاهل والاحباب
والصفو عاد لليالي ... والقمر
يسيل في بيادر الحصاد
يا رائحين بلغوا السلام
للصاعدين يرقبون مطلع الشروق
على ذوائب الجبل
والصامدين حول فارس الامل

هنا وبلسمات سريعة من ريشة متمكنة ، يترك لنا الشاعر تكوينا تشكيليا منغوما لسهرة ريفية باسمة يظللها السلام ، وللصامدين حول فارس الامل يبدون كالظلال في خلفية اللوحة ، يطوقهم شعاع من اضواء الشروق يبعثونه الى الصاعدين هناك يرقبون مطلع الشروق على ذوائب الجبال .

فما نراه في مقدمة اللوحة هو انعكاس ميلاد البطل على الحياة ، بينما في خلفية اللوحة وكتهويمة بعيدة يتحرك الصاعدون والصامدون وفارس الامل .

وبهذه اللوحة الموحية واللوحة التي سبقتها في هذا التكوين يمهد الشاعر في تشويق لظهور البطل ، فتكاد تسمع طبولا خافتة تعلو تدريجيا وترتفع بارتفاع حرارة الدراما خلال العمل حتى تبلغ اوجها حين يقول في وقفة قوية « يا واهب الحياة للقناة » ، ثم يهبط النغم قليلا ثم يعود ليرتفع تدريجيا مرة اخرى ليختم بوقفة قصيرة قوية بقوله « يا فارس الامل » ، وهنا تقفز صورة البطل التي اشتقنا الى رؤيتها ـ الى المقدمة .

***

فاذا سرنا بعد ذلك خطوة الى الملحمة في شعر حسن فتح الباب، نجد ان الملحمة صنعة متغلبة في لوحاته ، فحتى تلك التي لم يقصد الى الملحمة فيها تجد ولو سمة يسيرة من سمات الملاحم . وليس هنا مجال تطبيق ذلك على كافة لوحات المجموعة ، اذ يضيق المقام به ، ولكننا سنعمد الى لوحة ملحمية واحدة من بينها هي ملحمة « ضابط في القرية » .

واحب ان اقرر بصفة عامة ، ان الملحمة عند شاعرنا ملحمة يظهر فيها طابع العصر واضحا ، كما انها ترتبط بموقفه المنتمي وبوطنيته ومصريته ..

فالشاعر حين يتمثل الموقف الذاتي يتمثل من خلاله الموقف العام مباشرة دون اصطناع ، فلا نستطيع من ثم ان نفصل بينهما في اية جزئية ، وهو حين يضع نفسه في محك التجربة يكشف من خلال الذاتية عن صراع غائر في قلب الشعب ، وتنمو الدراما نموا طبيعيا نابعة من الصراع بين الذات وما حولها ، ويتسامى ذلك الصراع حتى يصبح الكل في واحد قطرة من الحياة الانسانية .

لا تزحم الطريق بالخطا
خطاك ظل طارق كئيب
وكلما مضيت هاربا من الصدق
لم انج من عيونهم تطوق الطريق
والف وجه ... الف عين
تقول يا غريب

لا تزحم الطريق بالخطا
يأيها الغريب

بهذه الافتتاحية المتعددة النغم يبدأ الشاعر وقد حول النظرة الاستنكارية الصارمة العامة الى صوت آمر قاطع يصدر عن الف عين، يطوق الطريق ويسده على هذا الدخيل .

لقد وضع الشاعر منذ اللمسات الاولى في اللوحة صورة للمقاومة الشعبية التي هي في الحقيقة البطل الملحمي في هذا التكوين الشعري والتي تومض من خلال بقع لونية منفومة على ابعاد متوازنة داخل اللوحة .

لكنهم عند الحصاد يرسلون لي
سنابل الوداد مثل حبة الفؤاد
نقية كقطرة من المطر
وفي ليالي الصيف يزهر القمر
ويومض الثمر
وكالندى يرقرق الحديث حلقة السحر
كم شاقني الهوى لصحبة الرفاق
هنيهة في السامر الطروب
وكم رجعت في اهابي الكئيب
والف وجه .. الف عيد
تقول يا غريب
لا تزحم الطريق بالخطا
يأيها الغريب

فالى جانب الجمالية الموشاة برقة اللفظ المحبوكة بترابط الاسلوب وقوته ، المنسوجة بالموسيقى التوافقية ـ الى جانب ذلك كله ، نقرأ صفحة من تاريخ مصر في محاربة الدخيل . فهؤلاء الفلاحون المصريون يهدون اليه اعز ما لديهم ، ولكنهم يقاطعونه مقاطعة قاسية ، لا يدخلونه الى قلوبهم ولا الى مجتمعهم ، ويظل هكذا حبيس الوحدة . ومن ثم تصبح الهدية نوعا من الاذلال الصامت والعقاب النفسي الشديد . والمعروف تاريخيا عن الشعب المصري انه الشعب الذي اذا دخل اليه غريب معتد ، فاما ان يخرج حيث لا يستطيع البقاء ، واما ان يذوب وينتهي الى لا شيء . فالبطل الملحمي هنا هو الشعب المصري ممثلا في المقاومة الشعبية الجامعة . والدخيل في هذه الملحمة هو ممثل السلطان التركي او المستعمر او الاقطاع . والصراع هنا قائم بين هاتين القوتين المتصارعتين . وكل من يرتدي زي الدخيل يسمونه الغريب حتى ولو كان منهم فهو خارج عليهم منضم الى اعدائهم .

ورغم ان الذاتية في هذا التكوين الشعري قائمة في النموذج الذي عرضه الشاعر وهو الضابط المصري الذي يحس هذه الانعزالية وهذه المقاطعة احساسا نفسيا مدمرا فيقول :

ابي الذي مضى
ولم تشيع نعشه حشود
خطاه ما تزال بينكم على الطريق
وعينه تقلب السماء
لتضمن النماء للبذور
والزاد للصغار

الا انه من خلال هذه الذاتية وهذا التوسل ينطلق الى جموع الناس يتساءل ، ثم يجد نفسه وقد خاض يفتش عن ذلك المجهول الذي يعزله عن الجماهير فيصطدم بالبطل الاسطوري حيا منذ الازل في نظرة صارمة تطوق الطريق .

وعلى هذا النسق المتفرد الذي عثر عليه الشاعر خلال معاناته للوصول الى تكوين فني ناضج ، يمضي الشاعر في باقي ملحمياته يختار لها ابطالا مصريين لحما ودما ولكنهم في وهم الشاعر وفي تصويره الموفق اسطوريون .

***

اما القصة المصرية القصيرة عند حسن فتح الباب ، فهي قصة جياشة تبدأ بؤرة من ضياء ثم لا تلبث ان تنتشر فاذا هي تضم جماهير الشعب باسلوب رقيق شائق منساب خال من الافتعال . ففي قصيدة (المقرىء الصغير) يلتقي الشاعر كل صباح بطلعته ، يرشق الطريق لكن بلا عيون ، والقرية العذراء تسمع الخطا ولا ترى العيون ، وينشر الضياء من ليل قريته الطويل بلا عيون . وفي الصباح حين ينطلق البحر والطوفان من اقدام جامدة جافية صفوف ، تشدها لارضها الشقوق والرياح ، ويبدأ الكفاح الرهيب من اجل لقمة العيش ، يرفع الصبي صوته النحيل ويبدأ الترتيل ، فربما تكشفت مغالق الصدور ، ويسكب الوجه الكليل ومضتيه لكن بلا عيون . وفي قرية الشاعر ربما يقلب الناس في التراب ، باحثين عن جوهر كريم ، فيبخل التراب ، لكنهم لا يبخلون بالعيون ، هدية للافق كي ينير ، للارض كي تدور ، للنهر للاقدام كي تسير . فهنا يربط الشاعر بين مأساة الطفل الضرير في قريته ومأساة الناس الذين يحاولون استخلاص البذور من اظافر التراب ، وذلك الطفل يرسل اليهم بصوته النحيل فيضا من النور الالهي يعاونهم على كشف مغاليق انفسهم . وهذا الطفل نموذج لاطفال كثيرين في الريف يحول العمى بينهم وبين العمل . ولكن هذا الشعب الجائع المكافح المثابر يفسح لهم مجالا في صدره ويهبهم الحياة . ولئن يعل الناس طفلا كهذا فهو امر هين بالنسبة لافراده الذين يهبون نور عيونهم لتشرق الحياة حولهم . والقصيدة غنية بالجمالية جياشة بالاحساس والحب للنموذج البشري الذي ينبض خلال النسيج المتماسك للاقصوصة الشعرية . كما ان الاسلوب التأثيري الذي استعمل في تصوير جماهير الكادحين والعنصر الواقعي الذي استعمل في صورة المقرىء الصغير يتداخلان في عملية مزج انتقالي جمالي خلال الحركة الدرامية ، ويزيد التكوين التشكيلي بهاء استعمال كلمتي « بلا عيون » استعمالا نغميا تشكيليا خاصا يحمل طابع التجريد ولكن بوعي كامل يستخلص جوهر الجمال التجريدي .

فاذا دخلنا الى مجاهل الذات ، وعاصرنا الشاعر وهو يضم جوانحه على مأساته الخاصة ، فهي غالبا لا تكون مأساة وجود وعدم ، او مأساة الانسان المأزوم تجاه غموض الكون واسراره ، او مأساة الخوف من الشر الفامض ، وانما هو ـ كفنان ملتزم ـ ذو موقف واضح ، فان ازمة ذاته تنعكس ولا غموض فيها او تعميم ، بل هي ازمة الانسان الذي يؤمن بانها مع مأساة غيره من البشر لا تجد طريقا الى الحل الا بصورة جماعية .

وتأسيسا على فلسفة الشاعر هذه ، نراه يسرع الى اشراك صديقه او حبيبه في مأساته اشراكا فعليا ، ثم لا يلبث ان ينطلق من دائرته المغلقة الى رحابة الفضاء ليلتقي بالبشر فتذوب احزانه في احزانهم وتفنى ذاته في ذواتهم لتغمره قطرة حب :

لم يعرفني الاصحاب
بالاعين بين ضلوعي
حسرت موجتهم ظل دموعي
قالوا ما اشقى الطائر
في شرك الظلمات

الى ان يقول :

واختلجت اجفاني عن دمعه
لم يلمحها الاصحاب
وانطفأت شمعه
يا ويلي
كانت اخر شمعه
تسكب في قلبي الاشراق
تومض للاحباب .

وهكذا فان الشاعر يمزج دائما بين ذاته وبين الاخرين ، وتؤكد الخطوط النهائية في هذه اللوحة هذا التلاقي والامتزاج بما يجعل شعر الذات عند حسن فتح الباب منطلقا الى رحابة يتخذ فيها موقفا انسانيا ويصبح قطرة متميزة غير انها سابحة في محيط الحياة :

يا للروعه
هذي انت تلوحين
كرة في الزرقة تتوهج
قلبا جوابا يتهدج
لا زمنا ، لا قيدا ، لا ابعاد
في شرفات الفلك الدوار
وسناك الخاطف للابصار
يطرق قلبي ، يسبي لبي

وكما هو واضح يتبين حب الشاعر للحياة وايمانه بها وبالقيم التي توحد البشرية في قلب واحد هو الارض الام بحيث يصبح الانسان متحررا من كل ما يعوق انطلاقه نحو الاندماج في الكل . وهنا تبدو لمحة من تفكير وجودي مندمج في تفكير انساني تؤكد موقف الشاعر المنتمي انتماء انسانيا لا مذهبيا :

ردت غربتهم رحلة جاجارين
والتفت في امسية عذبه
ايدي العشاق
وتلاقت اشواق
حرى تنشد قطره
قطرة حب
في عيد الانسان الصاعد
يرفع اعلام النصر

ونختم هذه اللمحة السريعة التي قضيناها خلال هذه المجموعة الجياشة من الشعر العربي الجاد لنخلص الى رأي مؤكد هو ان هذه اللوحات الفنية الجميلة قد اثرت شعرنا العربي واضافت اليه ابعادا جديدة في التكوين والاداء بالصورة والنغم .

القاهرة — احمد لطفي عبد الفتاح

لالاء القمر

شعر الدكتورة عائكة الخزرجي

دار مطابع الشعب ـ القاهرة ـ ٧٧ صفحة من القطع الصغير

***

ونلتقي مرة اخرى على صفحات « الاداب » الغراء مع الدكتورة عائكة الخزرجي في مجموعتها الشعرية الجديدة « لالاء القمر » بعد ان قلنا كلمتنا في مجموعتها السابقة « انفاس السحر » .. وقد كان املنا في الشاعرة ان تصفو بعد تلك المرحلة القلقة المضطربة .. وقد سكنت في صدرها نفسان ـ كما يقول « غوته » على لسان « فاوست » ـ نفسان تخالف تياراهما فاحدهما يجذبها نحو السماء والاخر يشدها الى الارض .. وهي تطمح الى الاول ولكنها تعيش مع الثاني وتشعر كما شاء وتتصرف كما اراد .. وان تعلقت احلامها باوهام الخيال الصوفي..

وقبل ان ندخل في نقد المجموعة نود ان نقول كلمة في مقدمتها وكاتبها الاستاذ احمد حسن الزيات اذ انه لم يقل شيئا فيما بين يديه من شعر الشاعرة .. وانما راح يسوق حديثه ويتشعب به في شعرها السابق وفي لقاءاته .. لكنه اعتراف لا تخفى بسمته الخادعة على المتأمل فهو يقطر مجاملة وينضح محاباة .. وما انزه الادب الحق والفن الخالص عن المجاملة والمحاباة ..

ـ ١ ـ

مجموعة الخزرجي لون واحد من الشعر .. هو الشعر الذاتي الوجداني (١) وقد يوهم بعضه القارىء .. فيحسبه شعرا صوفيا .. كما اوهم الاستاذ سامي الكيالي .. لكني ما زلت مصرا على ان شعر التصوف عند عائكة الخزرجي خرافة ليس لها الا الخيال السرابي مأوى .. فما لدى الشاعرة سوى الغزل الغارق في اوهام الغرام واحلامه الهائمة .. الغزل بذات مجسدة الغزل بفتى الاحلام .. والعواطف المشبوبة اذا ما ارتطمت في جدار اليأس الاصم تصبح هشيما تذروه الرياح .. ولكنها لم تسم عند الشاعرة عن الطمح الى التجربة الحياتية ثانية .. او ثالثة .. واكبر ظني انها في سبيلها الى التصوف..لكنها الان طبخة غير ناضجة .. فمتى صدرت عواطفها شعاعا شفافا عن نفس تقول وتفعل وعن قلب خالص من شوائب زخارف الحياة الدنيا وتوافهها الخالبة .. ترقى سلم العدوية .. اما هي الان فلا ..

لذا نحن نرى هذا اللون من شعرها جاريا مجرى النظم الركيك المضطرب .. قد تعكزت به الشاعرة على اشعار القدماء تسرق منها ما تخفى سرقته وما لا تخفى .. كما سنبين بعد ..

اما شعر الخزرجي الوجداني فهو مشبوب العواطف رقيق المشاعر حسن الاداء وان بدا متعثرا في بعض احاييه .. وهو الشعر الصادق في المجموعة التي بين ايدينا .. ويلمح قارىء المجموعة رواية حب خائب تخفى متسترة آنا وتبدو معالمها اوانا .. ثم تتلاشى في كهوف اليأس المعتمة في النهاية .. فهي تتودد الى الحبيب وتفديه الف مرة وتخشع امامه ضارعة خائفة هذا الهجر المخيف .. اسمعها تقول :

تفديك روحي الف مره ... لله بعدك ما امره
اني اكاد اجن فيك ... فهل اليك اليوم نظره
اني ليفزعني الفراق ... واتقي في الحب شره

وتتحرق الى العودة لدفئه فتلقي هذا الاستفهام المرير :

كيف السبيل وبيننا ... قدر يهاب القلب امره
ومتى نعود متى اراك ... ونلتقي في الله مره (٢)

فهو تحرق للعودة واشفاق من طول الفراق .. وان كان البيت الاخير يبدو متسترا اذ لا تريد في عجزه الا (ونلتقي في العمر مرة) :

وتكثر من ذكر الصدود والهجر وهي تجارب عانتها الشاعرة وتعانيها .. اسمع قولها :

حمل من برح الهوى اشده ... وعود الصدود حتى اعتادا
واسرفوا في ظلمه فحرموا ... عليه ان يشكون الهوى فازدادا (٣)

ويتردد هذا السؤال الملهوف على لسانها :

سأموت من لهف عليك ... واحسرتاه فمن اليك
كيف السبيل الى لقاك ... فارتوي من ناظريك
اترى يساعفني الزمان ... تراه يشفع لي لديك (٤)

وتثقل خاطرها الاحلام وتظل تملأ افقها وتمثل لها بكل سبيل ثم تتراءى لها اطيافا فما تلبث لحظة حتى تتلاشى في ضباب حرمانها ..

ألم رقيقا طيفه مثل طيبه ... وحيا ولم يلبث فادلج مضعنا
فما اقصر التقيا على شحط النوى ... فيا ليتهم ابقوا ويا ليت انا! (٥)

وتنام على يأس وتستيقظ على مرارة فما تملك الا الدموع عليها تخفف بها من لوعتها وتطفىء نارها :

بكيت على نفسي وحق لي البكا ... وهل غير نفسي بالبكاء جدير
أأدنو ولا لقيا ؟ وأنأى ولا قلى ؟ ... فيا ويح هذا الدهر كيف يدور (٦)

وترجع الى نفسها تدفعها الى التشفع بكل وسيلة والتوسل اليه

---

(١) نستثني من ذلك قصيدة واحدة هي (لقاء الاحباب) فهي تشبه قصيدة (بغداد) في انفاس السحر تبدو غريبة في المجموعة بل تكاد تتوارى خجلا وقد ضاعت بين القصيدتين القصيدة التي قالتها في « مهرجان الكندي » الذي انعقد في بغداد . (٢) ص ٣٧
(٣) ص ٤٦ (٤) ص ٦٥
(٥) ص ٥٦ (٦) ص ٧٢

بكل شفيع فلم تنفع الوسيلة ولا اجدى الشفيع :

قد بذلنا كل غال هينا بين يديه

- فتستسلم لليأس .. وتنأى حين ترى هوانها وتحس بذلها :

سانأى سأذهب لا رجعة ترجى لحبي ولا اي عوده

وماذا عليه اذا ما ذهبت ؟ واهون شيء اراني عنده (٧)

* ● *

والشاعرة بادية التأثر بعلية بنت المهدي .. اخذت عنها الكثير وتوكأت على عواطفها وتجاربها الشعورية .. بل اكثر شعرها الوجداني - وهو خير ما نظمت - عيال على شعر علية بنت المهدي . ذلك بالاضافة الى ما اخذت من غيرها من الشعراء الغزليين والعباس بن الاحنف في مقدمتهم ..

ونحن اذا قرأنا لعلية بنت المهدي شعرا نهتز لما فيه من روعةالفن وصدق التجربة ولهيب العاطفة اما صاحبة هذه المجموعة فما في شعرها روعة الفن ولا جمال الشعر فما هي سوى اصداف خاوية .. فانت اذا قرأتها تجد هذا البرود خصوصا فيما تكلفت فيه مشاعر المتصوفين وسبحاتهم .. اقرأ القصائد : « الله » « احبه » « آمنت بالحب » « احبك » « آي جمال » .. تجدها ركيكة بادية التكلف مثقلة المشاعر بركام من المحسنات غارقة بالتكرار الممل ففي قصيدة « الله » كم كررت « ويا من اليه غدا يرجعون » على انه تعبير لا ماء فيه وكم اقتبست من الايات القرآنية وقد بدت دررا بين احجار مبعثرة .. وهذا نموذج للقارىء من هذه القصيدة الطويلة .. فسيجد معانيها حيية من الفاظها والفاظها متوارية عن معانيها :

وجارت باحكامها الاقوياء فسيم الضعيف عذابا وهون

ولم يعط من مالك الاغنياء وراحوا على شحهم يحرصون

ولم يبق في الناس معنى الحياء فامسوا بآثامهم يفخرون

وضجت مواخيرهم بالحياة وباتت محاريبهم في سكون

عبادك يا رب ضلوا السبيل فاين الدليل عسى يهتدون (٨)

وتستمر القصيدة في هذه المعاني المبتذلة والاسلوب الركيك ولا اعتقد ان هذا النظم يصعب على المبتدئين في قول الشعر ..

وقارىء قصيدة « تحية » يثبت قولنا في خرافة شعر التصوف عند الشاعرة فهي تكشف عن زيف هذه العواطف المصطنعة وبهرجها الواهم اسمعها تقول :

اهواك اهوى الحسن اهوى الله في خلق جديد

في آية رقراقة القسمات مشرقة الخدود

هذا فؤادي لم يحد عن عهد حبك او قصيدي

قسما بمن قسم الجبال بوجنتيك بلا حدود

بالسحر في عينيك في شفتيك بالدر النضيد

اني احبك سيدي أوبعد هذا من مزيد (٩)

- ٢ -

في المجموعة على صغرها ما يستصرخ ضمير القارىء ويدفعبالناقد للتنبيه عليه .. ففيها اشطر تكاد تهرب الى اصحابها فهي تصرخ بوجه الناقد شاكية ما لحق بها من جور الشاعرة .. ومن الغريب ان يحدث هذا عند شاعرتنا وهي معدودة من فضليات شواعر العصر الحديث .ومع هذا فقد سطت عاتكة على المتنبي في قولها (ص ٣٤) :

وهل يرد علي الفائت الاسف

والمتنبي يقول :

فما يدوم سرور ما سررت به ولا يرد عليك الفائت الحزن

وقولها (ص ٣٣) :

حديثنا الصمت الا انه كلم

والمتنبي يقول :

هذا عتابك الا انه مقة قد ضمن اللفظ الا انه كلم

وقولها (ص ٦٥) :

كيف السبيل الى لقاك فارتوي من ناظريك

والشاعر القديم يقول :

يا من هواه اعزه واذلني كيف السبيل الى وصالك دلني

ثم هذا الاعتماد على اشعار علية بنت المهدي يضعف شخصية الشاعرة ويلقي عليها ظلالا باهتة باردة ..

ولا تخلو المجموعة على صغرها من اغلاط في النحو وعثرات في الوزن ففي قولها (ص ٣٩) :

فدى لعينيك عيني غير ان بها اراك يا فتنة جلت عن الفتن

غلط في النحو لانها لم تذكر اسم (ان) وهي حرف مشبه بالفعل مع العلم انه لا يجوز ان يأتي شبه جملة او فعلا .

وفي قولها (ص ٦٩) :

جمع الله بين جنبيك من العرب كراما نبتا وفرعا واصلا

عثرة عروضية فهو لا يخرج الا على لغة شاذة لا تذكرها سوى كتب النحو القديمة وهي عدم اظهار نون (من) الجارة في النطق.. ولا احسب ان الشاعرة فكرت بها حين قالت البيت ..

هذا واطيب تمنياتنا للشاعرة .

زهير غازي زاهد

مدرس اللغة العربية في اعدادية النجف - العراق

(٧) ص ٧٧

(٨) ص ٢٩

(٩) ص ٥٢

صدر حديثا عن دار الاداب

دور العرب

في تكوين الفكر الأوروبي

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي

يستعرض هذا الكتاب الهام اثر العرب في تكوين الحضارة الاوروبية في العصور الوسطى ، فيتحدث عن دور العرب في الشعر والفكر العلمي وتكوين الفلسفة والمعارف والموسيقى والمعمار في اوروبا ، ويلقي ضوءا جديدا على التأثير العربي العظيم في القرون الوسطى .

الثمن ٣٥٠ ق. ل